

محطات على طريق الوحدة



مرت الوحدة الإسلامية بمراحل مختلفة، خلال كلِّ التأريخ الماضي بدءاً من البعثة النبوية وانتهاءً بالمرحلة التي نعيشها.

المرحلة الأولى: هي مرحلة التأكيد على الوحدة الإسلامية وتجزيرها في نفوس المسلمين، وتبيان النتائج السلبية التي تترتب على الاختلاف، والوسائل الكفيلة بمنع حصوله وقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة لتثبيت هذه المرحلة وذلك من خلال:

1- اعتبار المسلمين أنَّهم أُمَّة واحدة وأنَّ كيانهم هو الكيان الواحد رغم تنوعاتهم القبلية والعشائرية واختلاف اللون والجنس والوطن وهذا ما أشار إليه ﷺ سبحانه بقوله: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَتَاعِبُونِ) (الأنبياء/ 92)، وزاد في التأكيد على هذه الفكرة ما ورد في الآية الأخرى (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون/ 52)، وقد حرص النبي ﷺ (ص) على هذه الفكرة من خلال تكرارها في أحاديثه وتوضيح معالمها الحقيقية، والتنبيه إلى الأخطار المحدقة بها، والتحديات التي تواجهها، فأشار في البداية إلى أنَّ أُمَّته تنسب إليه فكراً وقيادة كلونه معبراً عن ذلك بعبارة "أُمَّتِي" وأبرز أنَّ هذه الأُمَّة ستبقى على خير ما دامت تسير في هذا الطريق: "ولا تزال أُمَّتِي بخير ما تحابوا وتوادوا وأدوا الأمانة واجتنبوا الحرام وقروا الضيف، وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة..." "ولا تزال هذه الأُمَّة تحت يد ﷺ ما لم يدهن قراؤها أمراءها، ولم ينزل علماؤها فجارها وما لم يهن خيارها أشرارها، فإذا فعلوا ذلك رفع ﷺ عنهم يده ثم سلط عليهم جبارتهم..." وكان يحذّر أُمَّته عندما يقول: "توشك الأُمَّم أن تتداعى عليكم تداعى الأكلة على قصعها، قال قائل منهم أمن قلاية يا رسول ﷺ يومئذٍ؟ قال (ص): "بل أنتم كثير ولكنكم كغناء السيل ولينزعن ﷺ من عدوكم المهابة منكم، وليقذف في قلوبكم الوهن. قال قائل يا رسول ﷺ: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت". وكان يقول: "إنما أخاف على أُمَّتِي الضلالة بعد الفرقة ومضلات الفتن وشهوة البطن والفرج". وقد وثق رسول ﷺ (ص) هذا التعبير في الوثيقة التاريخية التي نصها للمسلمين بعد هجرته من مكة إلى المدينة ووصله إلى محلة بني سلمة حيث أقام أوّل صلاة جمعة فقال: "هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن بعثهم أنَّهم أُمَّة واحدة من دون الناس"، ثم ذكر فيها أسماء القبائل من المهاجرين والأنصار وبين واجباتهم تجاه بعضهم البعض، واعتبر خلفاء الأنصار من يهود بني عوف أو المؤمنين من الأُمَّة الواحدة هذه لاعتبارات سياسية ودعا الجميع إلى العدل والقسط ورعاية الذمة الإسلامية، والرجوع إذا اختلفوا إلى ﷺ ورسوله.

2- الحرص على الأخوة الإسلامية التي تمثل تأسيساً للجو العاطفي الذي ينبغي أن يحكم المسلمين تجاه بعضهم البعض، حتى يكون تلاقيهم على القاعدة الفكرية الواحدة والقيادة الواحدة والعاطفة الواحدة التي تشد كيانهم وتؤازره، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: (إِزْمَامَ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات/ 10)، حيث دعا إلى تثبيت مشاعر الأخوة بين المسلمين وإصلاحها كلما تعرضت لهزات داخلية، والحرص الدائم على التذكير بها، وينبغي أن تتحرك في الحاضر من خلال قواعدها المتينة المبنية على حبّ الله: (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَدَاوَةً كَفَرْتُمْ) (آل عمران/ 103). وقد أبرز النبي هذه الصورة الناصعة للإخوة الإسلامية من خلال المؤاخاة التي أجراها بين المهاجرين والأنصار كما روى ذلك ابن هاشم في سيرته حين قال: "خاطب النبي (ص) المسلمين يومئذٍ بالقول: تأخوا في الله أخوين" ويذكر ابن هشام أن هذه المؤاخاة كانت ذات آثار عديدة تمثلت حتى بالإرث، وقد حرص المتأخون على مراعاة حقوق هذا الميثاق الأخوي إلى نهاية أعمارهم. وحرص النبي (ص) على تركيز هذا البعد العاطفي للعلاقة بين المسلمين في حجة الوداع قبل أن يغادر الدنيا عندما وقف بينهم خطيباً في منى قائلاً لهم: "أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل مال امرئ حلة إلا عن طيب نفسه. ألا هل بلغت يا فاشهد". ثم قال لهم (ص): "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد".

3- التحذير من الاختلاف الذي يؤدي إلى التمزق والتخريب وهذا ما أشار إليه الله سبحانه وتعالى بقوله: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّ عَوَا مِرْهُمُ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون/ 52-53)، (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران/ 105)، (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (الأنفال/ 46).

4- إيجاد الوسائل الكفيلة بمنع استحكام أي اختلاف، يحصل في الساحة الفكرية أو الساحة العملية وذلك من خلال الرجوع إلى العلماء الذين يساهمون بنزع أي فتيل يفجر الخلافات ويعملون على إنهاؤها بأسرع وقت ممكن. وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: (فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل/ 43). كما قد يتم ذلك من خلال الرد إلى الله والرسول كما أشار إلى ذلك الله سبحانه: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء/ 59)، وكذلك الرد إلى أولي الأمر في القضايا العملية: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء/ 83).